المناهل

4

قصة

ابن الزاوية

عبد الكريم غلاب

دوت الرصاصة في الافق . رددت الجبال البعيدة صداها . الصدى الذى نسيته هذه الآفاق بعد ان كتمت انفاسه كتائب «تاليك» . . اصداء واصداء رددتها سهول وجبال الاطلس الكبير في السنوات الاخيرة ، ولكن صوت الرصاصة التى أطلقها ابن الزاوية كان نغما متميزا تتحسسه آذان المواطنين في الاطلس ، أصداؤه الذائبة في الفضاء حية قوية ، سمفونية صاخبة تملأ آفاق كل مواطن وهو يذرع السهول والجبال، ويزرع الارض او يرعى الشياه ، يحتطب من الغابة او يسقى من العين .

وانتصبت القامة السامقة . عينا صقر تلتقطان الصورة . كانت الضحيتان تهويان . السيارة متوقفة خلف العين ، فى حجر الجبل. كانا ، كما يبدو ، زوجين اخراهما الظل والماء ، وقد اتيا من بعيد يقضيان يوم عيد الربيع فى المروج الحافلة بالازهار والشمس وحقول القمح المخضرة.

ابتسم الوجه الذى كان عابسا . امتدت اصابعه تعبث بشعيرات لحيته الخفيفة . حرك عمامته الى امام . بدا لنفسه وكان رجولته اكتملت لاول مرة فى حياته . بحركة من اليد المطواع رمى ببندقيته فوق كتفه ، واستدار ، ثم مشى . .

كان الجبل يخفى وراءه طريقا لاحبة راوغت صلابته فاستدارت تستجير بحجره كحية تتنوى بين احضانه . أخذ ابن الزاوية طريقه متصعدا الاحراش ،يتشمم عبير الربيع المزهر ، تتهافت بين ناظريه فراشات مزهوة بعيدها . كانت نفسه راضية وهو يستعيد الصورة . هتف ضميره:

ـ سائحان بريئان استناما للامن فى ظل شجرة يرتويان من العين . ما ذنبهما ؟

ضرب الحشائش الناهدة بين قدميه فى عنف ، عصاه أهوت على رؤوسها الناعمة كأنه يرفض ان تقف فى طريقه ، وهتف عقله :

ـ شباب القبيلة . هذه الجبال والسهول ، الانهار والعيون شهدت مصرع الكثير منهم . كانوا برءاء . أزواجا وزوجات ، فتيات ، فتيانا ، لم يؤذوا احدا . ارضهم ، بلادهم زرعهم ، غنيماتهم ، احبوها . كانوا يسقون من العين او يلتجئون الى ظل .

اختنقت فى ضميره الكلمات وانطلق يصيح :

ـ الظلم ، الظلم . .

توقف قليلا ينبش بعصاه الارض المعشبة كما لو كان يبحث عن درهم ضائع. بقايا عظام. حيوان ؟ انسان ؟ لم يتوقف عقله ليجيب. خطا خطواته القوية. بدا الغضب على وجهه، وقد عادت العصا تضرب رؤوس الحشائش.

ـ هذه الارض التى اطأها ما تزال رائحة الدم تتصاعد من ترابها . اشلاء الضحايا سماد هذه الاشجار والحشائش، افترستها الطيور والحيوانات وما تزال بقايا عظامهم شواهد قبور .. (تاليك).

اسم تاليك قفز الى ذاكرته . يذكره جيدا . حدثوه وهو صغير عن جنرالات وكولونيلات حكموا المنطقة وحاولوا ان يذلوا رجالها . لا يذكر لاسماء ولكنه يحفظ اسم «تاليك». في الغابة وهو يساعد الحارس كان شبح تاليك يعيش بينهما. شيوخ القرى يعيشون في رعب من اسم تاليك. الاطفال ترتعد فرائصهم كلما ذكروا امامهم اسم تاليك. شبحه مهوم في الغابة لا تستطيع امرأة ان تقتحمها لتلتقط بعض اعشابها حطبا. شبح تاليك في كل مكان . حتى حارس الغابة كان يذكر اسم تاليك اكثر ما يذكر الله .

تداعت الذكريات : قبل سنة او تزيد .. لا يعرف السنوات وانما يعرف المواسم . كان ذلك قبل الحصاد. الزرع كان ما يزال طريا في سنابله، الجبال بدأت تكتسي حلتها المضيئة، ذابت الثلوج من قمم الاطلس، اندفعت المياه في العيون والسواقي . ما يزال يذكر ذلك : اشتكت قبائل (آيت الربع) من اغتصاب ارضهم ، لم يستطيعوا ان يدفعوا ثمن مياه السد ، وكان جوابه : فصائل جيشه تقطف الرؤوس التي أينعت في اولاد سعيد .

بصق على الارض في مرارة :

ـ رؤوس خراف لا رؤوس رجال . .

طوقت القبيلة . منع عنها تاليك ان تحصد زرعها او يتنقل رجالها الى حيث يعملون ، منع النساء ان تحتطبن او تستقين الا في سر . اهان جيشه النساء والرجال ... وعاد الهدوء .

ما يزال يذكره ببطنه المنتفخة وجسمه العريض ورأسه المدورة وصلعته الخفيفة ولونه المائل الى السمرة . كأنه ابن تادلة . من شمسها المشرقة اكتسى وجهه السمرة حتى يبدو وكأنه ابن القبيلة . يذكر ملابسه العسكرية ، وشارة الرتبة على صدره ، وعصاه القصيرة. كان يحملها حينما يتجول في سيارة «جيب» عسكرية ـ هي مكتبه الرسمي ـ وكأنه ينشن بها على الاغنام :

ـ ادفعوا ضرائب الماء او اخرجوا من الارض .

وهتف شاب :

ـ لانريد ماء .. يكفينا ماء الله .
وبلهجته التى تقترب من لهجة القبيلة :
ـ ماء الفرنسيس يسقى ارضكم لتزرعوها قطنا .

وهتف شاب آخر :
ـ يكفينا الشعير والقمح .
انفجر البركان . لم يكن احد يدرى كيف يحد من ثورته ، ولم يكن أحد يعرف انها ثورة مصطنعة . ولكن الذى عرفوه بعد ذلك ان الاوامر صدرت للقبيلة :

من لم يدفع ثمن الماء سيخرج من الارض .

المقدمون والشيوخ كانوا يبلغون الاوامر .

كانوا ينصحون :

ـ بيعوا الارض ان لم تستطيعوا الاداء .. ستغتنون ..

أسبوع واحد وبدأ الاجلاء .

وعرفت القبيلة ان تقول مرة اخرى :

ـ لا . .

وكان تاليك يرد على «لا» بنعم .

عاد ابن الزاوية من رحلته البعيدة . بصق فى مرارة على الارض وصوت مدو يهتف من اعماقه :

ـ لو كانوا رجالا . .

هو الهتاف الذى امده بالعزم حينما اهانه حارس (بونوال) كانت اهانة باسم تاليك . وكانت « لا » هي التي رفعت يده بالموسى لتستقر فى قفا الحارس ، ولتستقر بندقية الحارس على كتفه .

ـ هاهى ذى بندقيته تمكننى من رجولتى . لن اكون ابن الزاوية اذا لم احرر «بويكنيفن» .

تباعدت خطواته وهو يصعد الجبل، تخطى القمة ليشرف على الطريق في منعرج حاد ، توقف كخبير يقيس المسافات ، يرقب بنظرات حادة المنحدرات والمرتفعات . هذه الشجرة الفارعة بعرفها ، كم استظل بظلها الوارف وأكل من جوزها . في ظلها يقف مرة اخرى ، يحيط بندقيته بكفين قويتين يسند مؤخرتها على كتفه، يزوى بين حاجبيه، يسدد نظرة ثاقبة بعين مفتحة، تجمعت فيها كل قوى العين المغلقة، على مسيرة مبصق النار ، كان في مكانه بحيث يرى ويحدد ويصيب الهدف .

أسند ظهره على الجذع الضخم للشجرة العجوز ، أقعى وهو يبحث في مزوده عن لقمة خبز هي كل زاده ، اختلطت بمجموعة رصاصات كانت كل زاد بندقيته ، كان الهدوء يلف الجبل. طنين ذباب وزقزقة طيور وتهويمة فراشات . لم يشعر بالوحدة . بندقيته رفيق مريح . قضم قضمتين من الخبزة الجافة ، هرش شعيرها باضراسه القوية ، يتملى من لذتها كما لو كان يأكل خبز شعير لاول مرة .

دوت من بعيد اصوات محركات تخترق الهدوء ، تتلوى مع الطريق ، تراود الجبل فيحتضنها في حنان، تتصاعد اصداؤها مع الجبل كما لو كانت نغمات مثيرة. سيارات قادمة من ازيلال الى أوزول . امتدت اليدان القويتان الى البندقية في خفة ، انتصبت جعبتها نحو المنعرج الحاد . عين صقر تتجه مع القصبة الهادئة نحو الهدف . انفجر الجبل :

طخ .. طخ ..

دوت الاصداء في الآفاق . ترددت في اذنه وهي تتلاشى . وتستعيد كيانها كما لو كانت تأبى على الفضاء ان يمتصها ، ثم تتلاشى . ابتسم الوجه العبوس. كانتا سيارتين تنوءان بحملهما . توقفتا . ابصرت عيناه السائقين وهما يتهاويان على لمقود . تجمد ركاب السيارتين لحظات قبل ان تحركهم الفاجعة. انفتحت الابواب لتطل منها رؤوس في تلهف. كانت رؤوسا يائمة وآن قطافها . انطلقت الرصاصات تهوى بها على الارض المشبعة بدماء الشهداء .

– لن تكون ابن زاوية آحنصال لو أفلتهم . .

هكذا حدثته نفسه وهو يلقي النظرة الاخيرة على بلاط المعركة ، ويدير ظهره ليصعد الجبل .

فى مسيل ماء بارد ينحدر من قمة الاطلس امتدت كفاه ترويان ظمأه اللاهب . وتذكر ، كأنما كان قد نسى الماء : توضأ . استراح لبرودة الماء وهو يغسل أطرافه ورأسه ويعود ليجرع جرعات قوية من ماء لا تعرف مثل صفائه غير اعالى الجبال .

وقف يصلى وعيناه مصوبتان الى بندقيته التى نصبها كمحراب فى اتجاه القبلة . كان مطمئنا وهو بين يدى الله . يعرف ان الجبل حصن للخائفين ، ولم يكن خائفا ولا مرعوبا فقد عرفت تادلة فى سهولها وجبالها ابن الزاوية ، ولم تكن عينا أحد لتمتد اليه بسوء .

انطلق فى الجبال وبندقيته على كتفه كما لو كان يقوم بعمل مشروع. لم يفكر فى أن عمله غير مشروع ، كان من قبل يساعد حارس بونوال . يتبعه حيثما سار ويخضع لتعليماته وأوامره . البندقية على كتف رئيسه لاتريم ،وهوينظر اليها فى شوق .

ـ متى . . ؟ متى استطيع ان احمل هذه البندقية . أتجول بها فى مثل الحرية التى يتجول بها موحى ؟

ظل الامل يراود مخيلته . .

كان يصد الذين يعتدون على الديار عن ان يستمروا فى اعتداءاتهم. هكذا كان يفكر كلما ارتسم امامه السؤال : لماذا ؟

التلال والجبال والطرق المنعرجة عرفت اقدام ابن الزاوية ، رددت أصداء طلقاته النارية . الاكواخ والدشور تعرفت عليه لاجئا يطلب ،ضيف الله، كلما اضر به الجوع أو داهمه الليل بعد اعياء .

لم يكن يفكر فيما وراء الجبل ، فقد كان يصرع ضحيته ثم يمشى .

ـ لم يكن مضيفى يسألوننى : من اين ، ولا ما وجهتى ؟ لم تثرهم البندقية التى كنت احملها فى غير تستر على كتفى . كانوا يذكرون المجاهدين ويتوقعون دائما ان يمر بهم مجاهد . . كنت اطمئن اليهم ، أنام

ملء جفوني ، بندقيتي بين ذراعي . كنت أحس بان عيونهم ترعاني ، مـا شككت في انهم يظلون في حراسة الكوخ. كانت عيونهم معلقة بي وأنا اصلي الفجر قبل ان اودعهم .

هكذا استمع رفاق الزنزانة في سجن الدار البيضاء لابن الزاوية وهو يروي ما حدث .

طوع الجبال التي احتضنته غازيا وحيدا . كان يعرف كل شيء فيما وراء الجبال . المنطقة كلها تعرفه : بني ملال ، قصبة تادلة ، الفقيه بـن صالح ، القصيبة ، تاكزيرت ، القبائل كلها تعرف ابن الزاوية : آيت الربع بني عمير ، بني موسى ، أيت السرى ، أيت سخمـان ، العـرب والبربر يحترمون ابن الزاوية يقدره رجالهم، تنظر اليه نساؤهم في روعته وفحولته كسيد من سادة المنطقة المرموقين .

أرهف السمع الى حديث الزنزانة . كان الرفاق يتحدثون هذه المرة وهو يصغي :

ـ ازداد توتر الجو . . شعرت سلطات الاحتلال ان جيشا انطلق فـي الجبال يقنص الاوروبيين في طرق الاطلس . .

ارتفعت يده الى طاقيته تدني منها على جبهته . ارتسمت ابتسامة رضا على الوجه المعروق ، لم يكن يفهم كل ما يتحدث به الرفاق ، ولكنه أدرك ان جيشا انطلق في الجبال . كاد يهتف :

ـ كنت وحيدا . . .

وتذكر الفقيه . ترى اين هو ؟ في احدى هذه الزنزانات المنتشرة في الابهاء؟ . كان شجاعا وهو يبحث عن رصاصات يسرقه امن حراس الغابة و«مخازنية» المكاتب ثم ينقلها اليه وهو يراوغ مراكز الخطر . كان ينقل اليه أخبار الاضطراب في صفوف قوات الجيش، كان يمده بالطعام كلما زاره في الاحراش والجبال ويبصره بمواقع الخطر حتى يتجنبها . كـان يشد مـن عزمه وهو يتلو عليه آيات الجهاد في القرآن .

ـ لم اكن افهمه . . .

اعترف بذلك ، ولكنه كان يفهم انه يبشره بالجنة . .

ما يزال متطلعا الى مزيد :

ـ توزع الدرك فى الطرق يفتشون السيارات ويحققون مع الراجلين. ارتفعت الاصابات فى غير مكان . لا احد يدرى من اين ؟ أخذت فرق الجيش تطوق الجبل .

استدرك ابن الزاوية :

ـ رأيت طلائعها فى «ازيلال» لكنى رحلت الى «تاكزيرت» . . كنت بعيدا عن متناول ايديهم .

ابتسم وهو يضيف :

ـ كان الصيد ايضا ثمينا . . عشرة من «الكاورية» سقطوا .

اكتسى الوجه المعروق حلة الغضب . بدأ التعب والجوع ياخذان منه وهو يفكر :

ـ هؤلاء الذين ينامون ملء جفونهم . لو امتلات بهم الجبال والسهول والوديان لترك «النصرانى» الارض وعاد من حيث أتى . .

حزم لحيته الخفيفة الطويلة بين سبابته وابهامه ، صاح الى نفسه واذناه تسمعان :

ـ سيفهمون . . الرصاص يفتح عقولهم وان لم يصل الى آذانهم . .

قال كلمته ومشى . يطلق الرصاص ، يصلى ، يتبلغ بخبز الشعير ، ويشرب الماء . .

كان على موعد مع منعطف جبلى . من بعيد اخذت مرتفعات الجبال تردد أصداء نباح كلاب ضارية . عيناه لا تخطئان النظر كانت فى ملتقى نظراته والآفاق تردد أصداء نباحها .

ـ لم تكن كلاب القرى ولا كلاب الجبال ولا كلاب الصيد . أعرفهـــا جميعها .

وابتسم رفاق الزنزانة وهم يصغون . ابتدره أحدهم :

ـ الكلاب البوليسية . .

ـ البوليس لهم كلاب . . ؟

كانت تتشمم التربة وتجرى كأنها على موعد مع فريسة.

كان ضئيلا برصاصه، ولكنه أدرك ان الكلاب غير مامونة فصرعها من بعيد .

قال محدثه فى الزنزانة :

ـ بذلك قطعت حبل البحث عنك . كانت الكلاب تهدى كتيبة من الجيش تتبع خطاها . .

لم يفهم ، ولكنه لم يقم وزنا لهذا الحدث . كان يعرف انه لن يقع أسير الجيش ولا اسير الكلاب .

اخذ السير وهو يصاعد مع جبل تاكزيرت. ارهقه التعب والجوع.

ـ الفقيه تغيب يومين كاملين . لا اكل ، لا زاد للبندقية . ما تزال فى «الشكارة» البركة . . لكن لو تاخر اكثر مما تاخر ؟

الشمس تزهو فى ضحاها . الجبل الاشم يطامن من صلابته فينكشف عن منفرج. هنا عين اعرفها ، ملتقى الساقيات ، والغاسلات، والمستحمات..

ابتسم لنفسه على ذكرى طافت بخياله . ما يزال يذكرها : كانت صبية فاتنة ، اخجل حياءها ، وشبابه يتلصص بين الاغصان الفارعة . فضحته خشخشة الاغصان . سارعت الى ثيابها وفرت كظبية ، لم يعثر لها بعد على اثر..

قصدالعين . كن كثيرات . طلب ماء . كان مضطرا ان يطلب طعاما . وجوارا . .

ـ آمولاى الحنصالى لا امان هنا، عد من حيث أتيت انهم يبحثون عنك ومضى . .

اسدل الظلام رداءه على كثبان تاكزيرت . تصاعد ضباب خفيف كاد يمنع الرؤية ، حتى عن العينين الحادتين ، وقد الفتا ان تهتديا فى الظلام. من بعيد كان شعاع باهت يضيء ثم يختفى . نار او نور ؟ لا يدرى. ولكن الانسان هناك. شدد العزم على ان يقصد الشعـاع . الجوع والامـن مـن الكلاب التى لا يذكر قط انه رأى مثيلا لها ، وشعاع امل يدعوه ليلتجىء ، وعشـرة أيام من التصعيد والنزول . الرصاص بدا ينفد .. الفقيه لم يعد .. وما خرج من كوخه ليعود . سيبحث عن الرصاص بنفسه ان لم يعد الفقيه حتى فى المعسكرات حيث كان يتزود به المجاهدون .

اسـرع الخطى واقترب من الشعاع الباهت . نباح كلاب أليفة جائعة لم تثره ، ولكنه مع ذلك نادى وكأنه يستأذن :

ـ آعمى محمد . .

استجاب صوت قوى شاب

ـ من هناك ..؟

ـ ضيف يستجير

لم يكن ينتظر غير الترحيب الذى استقبل به. غراف لبن وخبزة شعير وماوى بسيط .. ونظرات مريبة للبندقية التى استراحت بجانب مضجعه وهو يصلى .

ـ عند الفجر افقت على همسات متناثرة اسمعها من أمام وخلف الكوخ لهجة لم اسمعها قط . ذكر اللغة التى كان يتحادث بها حارس «بونوال» .

وسأل رفاق الزنزانة :

ـ ألم تكن تتوقع ؟

ـ الغدر ليس عندنا فى القبيلة . نخالف ، نحارب ، يقتل بعضنا بعضا ولكن احدا لا يغدر بمستجير او ضيف ...

امتدت يداه فى خفة الى البندقية التى باتت فى حضنه . فتح بـاب

الكوخ ويده على الزناد. فى غبش الفجر تميز عشرات من الجنود برشاشاتهم المشرعة . القبطان روسو يطلب منه ان يستسلم .

لم يكن يتوقع المصير بهذه السرعة ولكنه كان ينتظره. عشرات من ابناء الزاوية خرجوا من القرية ولم يعودوا . ويوم خرج لم يكن ينتظر ان يعود . .

ـ نحن ابناء الزاوية نحارب ولا نهين . ويوم نغلب نعف ، ولكنا حينما نغلب نعترف بقوة عدونا ، ونضع السلاح ..

وتساءل احد رفاق الزنزانة :

ـ كان يمكنك ألا تضع السلاح ، فالمصير معروف وهو ينتظرك ..؟

فكر ابن الزاوية قليلا ، وهو يجمع شعرات ذقنه الطويلة بين ابهامه ووسطاه ويرفعها الى فمه كما لو كان يقبلها او يعلن اعتزازه بها. سبحت عيناه الحادتان فى فضاء الزنزانة حيث لا فضاء . بدا كأنه من الصعب أن يواجه منطقا لم يعرض له . يعرف انه تصرف بالغريزة وتقاليد النضال والفروسية . أشرقت عيناه بابتسامة وقد اوحى اليه بالجواب ..

ـ لن أمكن خصمى من شرف الشجاعة . سيقتلنى مقيدا دون سلاح.. تاليك يفعل ذلك . .

رمى البندقية من يده بعيدا ووقف مرفوع الرأس . روسو يتقدم منه فى حذر بمناه على زناد مسدس ضخم . بدأ جندى يفتشه فى عنف . لم يكن يلبس غير قميص وسروال ويتحرف بمزود ما تزال تقتعد فى جانب منه بضع رصاصات تختلط بفتات الخبز والموسى التى عرفتها قفا الحارس. جرده الجندى من مزوده والقيد يطوق يديه .

دفعه من وراء . المسدس مشرع فى ظهره .

لم تفتنه الهزيمة عن ان يتلفت نحو الكوخ ، بصق فى وجهه بمرارة. كان يود لو رأى صاحب الكوخ. لم يكن هناك . . .

على باب الادارة فى بنى ملال كان صفان من «المخازنية» بعمائمهم البيضاء تتقاطع طياتها فى حدق . بنادقهم مشرعة . عيونهم تقذف مزيجا من الحقد والغضب .

ـ لم اكن اعرف واحدا منهم . كلهم من القبيلة . لم اسيء اليهم. قمت بما كان بجبأن يقوم به كل منهم . لماذا يحقدون ، لماذا يغضبون ؟

كاد يبصق في وجوههم جميعا .. عيناه الحادتان تفرستا في وجوههم. سيل من الاحتقار كاد يصعقهم .

ـ ماذا لو تركوا تاليك يحمي نفسه ؟

أيد قوية من ورائه تدفعه فـي عنـف . اشتد العنف كمـا لو كانـت تتعجل وصوله.

لم يكن يدري الى اين يساق . سمع عن الذين صعـدوا الجبل ولـم يعودوا، لا يدري احد مصيرهم ، لكنهم لم يعودوا، عرف انه لن يعود، ولكن الى أين يساق ؟

ضجت القاعة وهو يدفع اليها . أصوات من هنا وهناك . رؤوس شابة تطل ثم تختفي ، وجوه شقر ، عيون زرق وخضر مذعورة تفتح على ابعادها في وجهه. القاعة تكاد تمتلىء . ضوضاء . كلهم يتحدثون لغة لا يفهمها ، بعضهم يحدق في وجهه ، آخرون يولونه ظهورهم . القاعة تكـاد تفرغ . يخرجون. رنين مزعج يصم الآذان. احدهم يتحدث.. يتوقف الرنين، وحده يتكلم. يشد نفس دخينته في عنف. ينفث دخانه. منتصرا ، منهزما ؟ لا يدري . لكن الصرامة ، الحدة تطبع الوجه الاشقـر والعينيـن الزرقاويـن والبذلة العسكرية .

قرع باب ، انفتح في عنف ، دخلت الجثة الضخمة ذات الوجه الاسمر في خطوات منفعلة قوية ثابتة . وقفوا جميعهم . بكلمة ـ بدت لابن الزاوية صارمة ـ جلسوا جميعهم . تطلعت عيناه المثقلتان بالسهاد والحقد والالـم والغضب وبولعوان، ، اصطدمتا بالعينيـن الحادتيـن القويتين المعتزتيـن الصافيتين . انهزمت العينان الحاقدتان ، تشاغلـت اليدان المضطربتـان تقدحان وقيدة في الغليون الخابي . تحاملت العينان المثقلتان على نفسهما، حاول ان يملاهما اعتزازا وفخرا وانتصارا واحتقارا لتصطدمـا مرة اخـرى بالقامة السامقة تمتلىء رجولة وشهامة . ترسبت النظرة الحاقدة في الوجه الجرئي .

ـ أعرف هذا الوجه .. لا ادرى اين رأيته ؟ هو بطوله ونحافته وحدة نظراته واكتمال شخصيته . . اين . . اين ؟

وظلت : اين ، تحوم فى فضاء العقل الذى عاش فى تادلة حاكما جبارا يطوع الجبال والسهول ، ويؤدب القبائل ويسخر الرجال لحفر السد وخدمة ضيعات «المعمرين» .. زوى بين حاجبيه كأنه يحاول ان يتذكر . وذكر الوجه المعروق الصلد : انه الوجه الذى كان يصطدم به فى كل انحاء تادلة. هو كل ابناء الزاوية ، كل ابناء اولاد سعيد ، كل ابناء آيت احنصال .

انتظر الضباط وروساء المصالح والمراقبون المدنيون طويلا. عيونهم تتنقل بين تاليك وابن الزاوية كان هناك سرا لم يكشف بعد. كاتب المحضر ـ والقلم بين اصابعه ـ ينتظر ان يتفوه احدهما بكلمة .

مرت الدقائق الاولى فى تحقيق عادى لم يتردد ابن الزاوية فى ان يجيب عن اسمه واسم ابيه وقبيلته ومكان اقامته .

ـ امك اسمها ؟

. . . . ـ

ساد الصمت مرة اخرى بين الوجه المحتقن والوجه الصارم المسالم.

أمك اسمها ؟

. . . . ـ

ـ زوجتك اسمها ؟

اعتصم ابن الزاوية بصمت مطبق جللته نظرات غاضبة وانهزم تاليك

لم يحرص على ان يسجل اسم الام واسم الزوجة وهو يلحظ الغضب الذى اخذ يتطاير من عينى ابن الزاوية . فهو يعرف بالخبرة ان الرجل فى فى هذه الناحية لا يقبل ان يسأل عن سيدات منزله .

لم يجد تاليك صعوبة فى التحقيق فقد كان ابن الزاوية يجيب عن كل عمل قام به ايجابا ، وكان ينفى ببساطة كل عمل لم يقم به . كان تاليك

يعرف انه لن يقابل كذابا ولا جبانا فلم يستعمل العنف. ولكن جوابا واحدا القى به فى متاهات الشك قبل ان يعود الى اليقين .

من كان معك فى العمليات التى قمت بها ؟

ـ . . . .

ساد الصمت مرة اخرى .

ضباط الفرق العسكرية التى كانت تطوق الاقليم شعروا بالهزيمة كما لم يشعروا بها من قبل. فيهم ضباط كبار كانوا صغارا وهم يشاركون فى عمليات اقرار الوجود الفرنسى ، وفيهم ضباط ما يزالون يتدربون على حرب الجبال ، كانت احدى فرصهم فى تادلة . انتفضوا جميعهم من اثر الهزيمة كما لو لسعتهم عقرب . وهتف كبيرهم فى عنف :

ـ يجب ان يتكلم كانت فرقة من رجاله تضرب فى كل مكان .

ـ لا اعرف ماذا قال، فقد كان يصرخ بالفرنسية. ولكن الذى لاحظت انه كان يود لو طار الى عنقى ليخنقنى .

قال رفاق الزنزانة مداعبين :

ـ ولعلك ثرت فى وجهه .. وكدت تخنقه .

كنت هادئا كان الامر لا يعنينى . الفرقة التى قال المترجم انها كانت معى لم تكن الا .. بندقيتى ..

ابتسم ابن الزاوية ـ ولم يكن يبتسم الا نادرا ـ وهو يرفع طاقيته نحو جبهته ..

كان تاليك اكثر هدوء من رفاقه . استعرضهم بعينيه المثقلتين كما لو كان «بولعوان» ما يزال يطل من محجريهما . حدث نفسه :

شبابهم وشيوخهم جهال . . لا يعرفون المنطقة ولا سكان اولاد سعيد

راوده العجب وهو يضيف :

ـ الحكم مهنة ، لكى تحكم منطقة فى البلاد التى استعصت على الحاكمين

لا يكفى ان تكون ضابطا فى الجيش ولا خريج مدرسة «الامور الاهلية» يجب أن تعرف المنطقة وتعرف سكانها .

قال ذلك وهو يشير بيده الى زملائه ينصحهم بالهدوء . جهر بما استقر فى ذهنه :

ـ لن يتحدث ، مثل هؤلاء لايتحدثون ...

قبل ان يتلقى نظرات الاستغراب اضاف :

. . . ستعرفون هؤلاء ، واحد منهم يعادل كتيبة . .

رن الجرس خارج القاعة . دخل مخزنى . اشارة من رأس تاليك. انحناءة من رأس المخزنى . أقفل الباب . انفتح الباب وتكشف عن الوجه الذى غاب ثلاثة ايام كاملة ، التقت عينا الفقيه بعينى ابن الزاوية وكأنهما لا تصدقان . وتملتا من الوجه الذى يطفح بمعانى الجهاد ، وكأنه قد غاب سنوات . اعتصرت العينان الغارقتان فى الالم دمعتين حارتين. كانت عينا تاليك تتنقلان بين الرجلين . لم يكن فى حاجة الى تحقيق :

ـ أتعرف هذا . . ؟

اجاب ابن الزاوية :

ـ أعرف الفقيه وهو صديقى

أجاب الفقيه :

ـ أعرف الشريف وهو صديقى

ـ أكنتما تتعاونان ؟

أجاب الفقيه :

ـ كنت مساعده الاول ، لو أمرنى ان .. لما ترددت ..

أجاب ابن الزاوية :

ـ كان أكبر مخلص وقعت عليه عيناى. لولاه لمت جوعا ولنفد زادى.

اشارة سريعة من تاليك . وغيب الباب وجه الفقيه .

وضع تاليك وجهه بين كفيه واستغرق في تفكير ...

ود لو كان مفوضا في مثل هذه الاحداث ، لانتهى الامر في هذه الجلسة .. تادلاويون كثيرون لتمت اسهون والجبال انفاسهم.. لكن هذا الثائر . . ؟ صيته تعدى القصيبه الى الرباط . . تعدى الرباط الى باريس. اى مجرم هذا الوجه المعروق الصارم ؟ .. هذا الرجل الذى لا يتلعثم وهو يقول : قتلت ؟

هكذا حدث تاليك نفسه وهو يامر بان يطوى الملف ـ وليس به غير ورقة اعترافات ـ ليحال على المحكمة العسكرية في الدار البيضاء .

ـ البندقية كانت هناك. كان يسخر منها وهو يقلبها بين يديه ويسال ليزداد تاكدا :

ـ بهذه حقا كنت تقتل .

وضحك ابن الزاوية

ـ حتى شكارتى القديمة المرقعة كانت هناك .

اتسعت ابتسامته وهو يضيف :

ـ سالنى عنها.. النصرانى.. لا شغل له ، يسال عن كل شيء.

قال احد رفاق الزنزانة :

ـ وكان بها رصاصات ؟

ابتسم ابن الزاوية فى اطمئنان او فى اسى :

ـ لم يعد بها غير خمس رصاصات . .

تذكر مضيفه وكاد يبصق فى مرارة وهو يضيف :

ـ ... كانت تكفى لخمس رؤوس ،

لاول مرة فى تاريخ السجن كان قاتل يحظى بالاحترام. حينما كان يعود من التحقيق العسكرى يدخل باب السجن فى مشيته المتئدة ، قامته الفارعة تملا العيون اجلالا . كان السجن يغلى كالمرجل. معتقلون يتحدثون ويتحركون ، أوامر تصدر ، أصوات عالية ترتفع من الحراس والمراقبين والرؤساء والمديرين . وحينما يدخل ابن الزاوية تقف الحركة وتهدأ الاصوات ، ويقف المعتقلون صفوفا ، عيونهم معلقة بالوجه السابح فى البطولة . رؤوسهم تكاد تطأطأ لرجل الجهاد . الحراس والموظفون الاجانب يبدون وكأنهم آلهة امام المعتقلين ، ولكنهم امام ابن الزاوية كانوا يشعرون بأنهم صغار ، لا تكاد اعينهم ترقى للنظر الى وجهه . كانوا ممتلئين حقدا وغيظا ، لكنهم كانوا مكرهين على ان يحترموا ابن الزاوية ، تكاد ايديهم تمتد الى قبعاتهم ترفعها احتراما للرجل الكبير ، وهم الذين يرغمون كل سجين على أن يرفع طاقيته احتراما لهم .

كان ابن الزاوية يعود من التحقيق العسكرى وهو يستغرب ان يكون المحقق من السخافة بحيث يعيد الاسئلة ويدير الحديث عنها كما لو كان عديم الفهم . .

ـ نفس الاسئلة ونفس الموضوع.

بهذا يادر زملاء الزنزانة ، وكأنه يجيب عن الاسئلة التى تطفح بها عيونهم .

ويلوذ ابن الزاوية بصمت عميق . تسبح عيناه فى الفضاء المحدود ، يقضى الساعات هادئا صامتا مفكرا كأنه فى مناجاة او صلاة .

ـ فيم تفكر ..؟

قطع زميل من زملاء الزنزانة هدوءه . تلفتت عيناه فى انفعال وكأنه عائد من بعيد . طافت ابتسامة عذبة على الشفتين الحادتين . تردد كما لو كان يتذكر فيم كان يفكر . أجاب :

ـ الظلم . . . الظلم الذى يجعل هؤلاء «الكاورية» يغتصبون ارضنا ويتحكمون فينا كأننا عبيد . .

ويعود الهدوء الى الزنزانة فليس لابن الزاوية كثير مما يقول. لم يكن يناقش في السياسة حينما كان زملاء الزنزانة يتحدثون عن الطوق الذى تحكمه الاقامة العامة على المغرب ، لم يكن يناقش مستقبل المغرب : الاستقلال ، استمرار الحماية . ولم يكن يناقش مستقبل الحزب بعد ان صمم كيوم على القضاء عليه . وانما كان يفكر في الظلم . وكثيرا ما كانت عيناه تعتصران الما عميقا ـ لاتبكيان، الرجل لا يبكى ـ حينما يذكر الذين اغتصبوا الارض ومنعوا الماء .

ساد الزنزانة هدوء عميق . كان الزملاء ينتظرون الرجل الذى اصبح مصيره معلقا بكلمة يتلفظ بها رئيس المحكمة العسكرية .

لم يكن الرفاق يشكون في المصير ، ولكنهم كانوا يشفقون .

ـ من مصلحة الوطن ان يعدموه . .

صاح احدهم يخرق الصمت، وكأنه يفصل فيما تناقشه العيون الصامتة.

تلفتت نحوه العيون في فضول .

اضاف وكأنه يجيب على علامة استفهام :

ـ ما قيمة عمله ؟ مصرع عشرة افراد ما ذنبهم...؟

انفتح باب المناقشة :

ـ ذنبهم ؟ انهم يساهمون في الاحتلال ولو كانوا مدنيين، يغتصبون الارض والماء ويستغلون الثروة والادارة والتجارة .

بدا كأنه يخطب بكلام عادى . تراجع عن حماسه . ونطق صوت :

ـ قيمة عمله انه جدد اعلان العصيان ، وبالطريقة التي يجب ان يعلن بها العصيان .

عاد المتسائل الاول يوضح رأيه :

ـ قيمة عمله ان يزيد في تعميق الهوة بين الشعب ومزلاء المغتصبين. ابن الزاوية رجل من هؤلاء الذين لن تنساهم الاجيال. انتهت مهمته فـى

خارج الزنزانة ، بقى عليه الآن ان يؤديها وهو فى القبر . ان يطوف دمه فى الآفاق ليثير الحرب فى وجه الغاصبين . .

وساد الهدوء وكان الرفقة يفكرون فيما بدا انه فلسفة المقاومة. حتى نطق احدهم بكلمات ينز منها الالم .

ـ الفنا عشرته . . يعز علينا ان ينتزعه منا الموت . .

كان عاطفيا . لم يزد زملاؤه ان نظروا اليه فى شبه رثاء . وكان كلا منهم يتحدث الى نفسه :

ـ ما تزال السذاجة العاطفية تطبع تفكيره السياسى . . !

عم السجن هدوء فجائى . هدأ لغط السجانين والمسجونين .

تسرب الصمت من عرصة السجن الفسيحة الى الزنزانة الضيقة. عن طريق النافذة المعلقة ، تلاقت العيون فى نظرة استفهام . ساد الصمت الزنزانة دون ان يدرى احد لماذا ؟

الجلال يحيط بابن الزاوية وهو يعبر الساحة فى طريقه الى الزنزانة مرفوع الرأس يطفح وجهه بالثقة تملأ عينيه روح الاعتزاز . الفقيه يسير فى ظله خافض الرأس مهموم الفكر متعثر الخطوات . يحيط بهما ثلة من حراس السجن . . .

اتجهت العيون فى اجلال واشفاق نحو الوجه الذى يبعث الاحترام . كان الخبر قد سبقه وهو يعود من المحكمة .

اختفى جفد السجانين امام تقدير الرجولة . دمعتان حارتان طفرتا من عينى السجان المغربى بوجمعة . كان يتوارى خلف الصفوف التى وقفت تحية للرجل .

غيبه حى الزنزانات . فرقعت المفاتيح . اقفلت الباب السميكة خلف الرجلين اللذين عادا من المحكمة وفى اذنيهما كلمة : « الاعدام » .

الوجه الصارم لا يتطلب اشفاقا ولا مواساة . ألقى الخبر الى زملاء الزنزانة فى كلمات مقتضبة وبوجه بشوش . لم يفاجأوا . ولعلهم لم

يفجعوا . ساد صمت طويل قطعه الزميل العاطفي بصوته الجميل يتلو :

«ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله . والله غفور رحيم».

لم تحتد المناقشات بعد ذلك بين رفاق الزنزانة ولم يعودوا الى لعب الورق خفية من السجانين. وانما كان الصمت يخيم، كل منهم ينفرد بكتاب. ابن الزاوية يخلو الى نفسه فهو لا يقرأ . الفقيه يردد سور القرآن بين شفتيه ، لا يكاد يسمع له صوت. يجتمع الرفاق على آكلة السجن او ما يرد من العائلات . وتجمعهم الصلاة كلما نبههم الفقيه الى ان الوقت قد حان .

ويسود الصمت .

كان ابن الزاوية هو الذى يخرق الصمت هذه المرة .

اتجهت الاذان اليه وهو يسأل :

بأية وسيلة ينفذون الاعدام ؟

ترددوا فى الجواب ، وكأنهم كانوا يخشون ان يؤذوا احساسه . نطق احدهم :

ـ بالرصاص . . .

توقفت الكلمات في فمه فلم يزد . ابتسم ابن الزاوية ، لمعت عيناه. فاجأت الابتسامة رفاق الزنزانة . كانوا يتطلعون الى رد فعل آخر لكلمة «الرصاص» الابتسامة اوحت اليهم انه اكتشف سرا لم يكن يدريه. لم يتركهم ابن الزاوية يهيمون فى الخيال . قال ببساطة القها منه الرفاق :

ـ بالرصاص فقط . . هذا وكان ؟! كم قتلنا منهم برصاصنا ..

اتسعت ابتسامته . زاد لمعان عينيه ، بدا الارتياح على وجهه . لاذ بالصمت .

كانت الزنزانة رقم 13 تنتظر ابن الزاوية والفقيه . نقلا اليها بعد ان رفض رئيس الجمهورية الفرنسية طلب التخفيف الذي يقدم اليه مع اوراق الحكم

كاجراء تقليدى. كان الوداع الاخير لرفاق الزنزانة مؤثرا. واحد منهم كان يقول فى سره دون ان يبدو على وجهه اى تأثر :

ـ من مصلحة الوطن ان يعدموه . .

كانت عينان تطفحان بالدموع . الزميل العاطفى لم يملك نفسه ان يقول لابن الزاوية :

نحن واياك فى حمى سيدنا محمد . . لله ما اعطى ولله ما اخذ .

تمتمت شفتاه بايات من القرآن .

كان ابن الزاوية يودع رفاق طريق . أحبهم . شعر بانه لم يكن وحده. الوحدة التى عاناها وهو يطوف فى الجبال يلتقط الصيد تبددت وهو يثوى فى الزنزانة بين الجدران الاربعة. نظر اليهم بعينيه الحادتين الصافيتين وتمتم :

ـ اصمدوا ، اصبروا. هذا مكان الرجال .

وولى .

مضت ايام قليلة . فتح بوجمعة باب الزنزانة على المعتقلين. وجه أغبر عينان طافحتان بالالم . جاهد نفسه ليتغلب على اضطرابه . تمتم :

ـ مسكين ابن الزاوية .. والفقيه ..

وبكى .

الرصاصة التى اخترقت قلب ابن الزاوية دوت فى الآفاق كما لم يدو صوت من قبل . هز دويها المدن والقرى، دمدمت فى الدار البيضاء، زفرت فى الرباط ، انفجرت فى مراكش ، زمجرت فى «وادى زم» .

واندلح الصدى الهائل ليعود الى الجبال فى «اكنول» و«تيزى وزلو» و«بوريد» .

الرباط عبد الكريم غـــلاب